

نبي محمود وأمة محسودة

الاستاذ الذوايدي قوميدي.

كلية العلوم الإسلامية - باتنة

ولا فخر، وببيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من
نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي،
وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر».
والسيد من اتصف بالصفات العلية،
والأخلاق السنية.

وإذا كان محمد ﷺ «رحمة مهداة»،
فما أسعد أمته بهذه الهدية الربانية، وما
أوفر حظها من هذه النعمة السابعة.

وإذا كان كل ذي نعمة محسود، فإن
عجب أن تتجه العيون الحاسدة والنفوس
الحاقدة إلى هذه الأمة، خصوصاً إذا نظرنا
إلى سائر الخصائص التي أكرم الله بها أم
محمد ﷺ.

من محامد المصطفى ﷺ :

شهادة القرآن:

وقد شهد القرآن لمحمد ﷺ بالكمال
الإنساني فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

ليس أكرم عند الله من محمد ﷺ،
خاتم الأنبياء والمرسلين، الرحمة المهداة
والنعمة المسداة، ولم تلد نساء الدنيا أكمل
إنسانية ولا أوفى طهارة من محمد ﷺ، وما
محمد مخلوق ولا ذكر بكرم الشمانل إلا
محمد ﷺ. وبعبارة أخرى ما تربع بشر على
عرش الكمال الإنساني إلا محمد ﷺ.

وقد روي أنه ﷺ قال: (اسمي في
التوراة أخيد لأني أحييت أمتي عن النار واسمي في
الزبور الماحي مح الله بي عبدة الأوثان، واسمي في
الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأني محمود
في أهل السماء والأرض).

قال الإمام القرطبي: «فهو محمود
في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم
والحكمة، وهو محمود في الآخرة
بالشفاعة».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال
رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

عَظِيمٍ ﴿ القلم: ٤.

والمعنى كما قال الإمام الطبري: «وإنك يا محمد لعلی أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه».

روى عن علي رضي الله عنه أن المعنى: أدب القرآن.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أن المعنى: إنك على دين عظيم، وهو الإسلام.

وهو تفسير واسع يشمل الأدب وسائر العمل، لا كما يظن كثير من الناس اليوم أنه يقتصر على الجانب الخلقى، أي مكارم الأخلاق.

ويدعم هذا التفسير الواسع قول أمنا عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قالت: «كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن».

ولا شك أن القرآن لا يقتصر على جانب الأدب.

قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه

الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء، فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء، لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزا ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم».

قال الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن: «ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

وتبرز من جانب آخر، من جانب إاطقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقيها. وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمتها؟ ما دلالة كلماتها؟ ما مداها؟ ما

واحتراما واعترافا، وقد وردت روايات كثيرة في السيرة النبوية العطرة، تشهد لهذا الكمال، نختار منها نماذج، مع إعطائها عناوين مناسبة:

في حسن خلقه ﷺ :

- عن أنس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أنسا غلام كئيس فليخدمك. فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي شيء صنعته: لم صنعت؟ ولا شيء، لم أصنع: لم لا صنعت هذا؟. أخرجه البخاري ومسلم.

- عن أبي عبد الله الجدلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: «كان أحسن الناس خلقا. لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثله. ولكن يغفو ويصفح».

- عن أنس بن مالك قال: «لم يكن رسول الله ﷺ سبابا ولا لعانا ولا فحاشا، كان يقول لأحدنا عند المغتبة: قرب جيبه».

- قالت عائشة: ورأيت رسول الله ﷺ

صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين.

إن إطفاء محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة، من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولو أنها ثاء ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن.. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة. وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها من كل شيء آخر. أعظم بصورها عن العلي الكبير. وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا. لا يتكرر على العباد، ولا ينتفع، ولا يتعاضم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير!.

إن الكمال الإنساني الذي حمل الله به نبيه محمدا ﷺ ليُعَدَّ في ذاته سر الإعجاز الذي تنحني له العقول والقلوب إجلالا

يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا أسأم فأقعد، فأقذروا أقذر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو. أخرجه البخاري ومسلم.

عن أنس: «أن النبي ﷺ مرَّ بصبيان فسلم عليهم».

عن أنس بن مالك قال: «مرَّ علينا رسول الله ﷺ ونحن صبيان فقال: «السلام عليكم يا صبيان».

في حلمه وصفحه ﷺ :

عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعون.

ف قيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نعطهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكتم من قبلهم. قال: «لا بل أستأني بهم».

عن أبي هريرة قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليهم. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا. فقال: «اللهم اهد دوساً وأنت بهم».

عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: «سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دُعِيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله، أعلي عدو الله ابن أبي، القائل يوم كذا وكذا كذا وكذا. أعدد عليه أيامه. ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى أكثرت عليه، قال: «أخر عني يا عمر إني خيرت فأخترت، قد قيل لي: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، لو أعلم أني (إن) زدت على السبعين غفر لهم لزدت». قال: ثم صلى عليه ومشى معه إلى قبره حتى فرغ منه. قال: فعجباً لي وجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم. قال: فوالله ما كان يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْإِنشَاءَ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ لَكَ الْأُمُورُ حَقَّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم كَارِهُونَ﴾ التوبة: ٤٨. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله».

- عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له قط ولا امرأة قط، ولا ضرب يده إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه

أن رسول الله ﷺ جعل يعطى الناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال. فقال له رجل: يا نبي الله اعدل. فقال النبي ﷺ: «ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل، قد حئت إذا وخبرت إذا كنت لا أعدل». فقال عمر: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي».

محمد ﷺ يملك زمام قيادة النفس البشرية:

ويشهد له ما روى أبو أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إنك لي في الزنى. فأقبل عليه القوم فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً، فجلس. قال: «أتحبه لأهلك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمّياتهم». «أفأتحبه لابنتك؟». قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». «أأتحبه لأختك؟». قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». «أأتحبه لعمتك؟». قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعلماتهم». «أأتحبه لخالتك؟». قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه ثم قال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه

شيء فاستقم من صاحبه إلا أن تنهك محارم الله فيستقم لله عز وجل، وما غرض عليه أمران إلا احتار أبسهما إلا أن يكون مأثماً، فإن كان مأثماً كان أبعد الناس منه».

رحمة محمد ﷺ تستوعب الأحيال:

يشهد لهذا ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على بنى عبد كلال فلم يجيبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّني. فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». «فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثي ربك إليك لتأمرني بأمرك) يا محمد فما شئت، إن شئت أطيقت عليهم الأخشين». قال النبي ﷺ: «بلى أرجو أن يخرج الله من أضلالهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً».

محمد ﷺ يحذر ويحذر من الشبهة الإعلامية:

يشهد لهذا ما روى جابر بن عبد الله:

وَحَصَنَ فَرْجَهُ». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

ويشهد لذلك أيضا ما روي عن أبي هريرة أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء، فأعطاه شيئا، ثم قال: «أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ؟». قال: لا، ولا أَجْمَلْتُ. قال: فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم: أن كفوا. ثم قام فدخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابي فدعاه إلى البيت (فزاده شيئا) فرضى فقال: «إِنَّكَ جَنَّتَا فَسَأَلْنَا فَأَعْطَيْتَاكَ وَقُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّى يَذْهَبَ مِنْ ضُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ». قال: نعم. فلما كان الغداة أو العشي جاء. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا كَانَ حَانَعًا. فَسَأَلْنَا فَأَعْطَيْنَاهُ، قَالَ مَا قَالَ، وَإِنَّا دَعَوْنَاهُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَعْطَيْنَاهُ، فَرُغِمَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ، أَكْذَابُ!». قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ مِثْلِي وَمِثْلَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ كَمِثْلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ فَشَرِدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا تَفَوُّرًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي فَأَنَا أَزْفُقُ بِهَا. فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قِمَامِ الْأَرْضِ، فَجَاءَتْ فَاسْتَنَاحَتْ، فَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حِينَ

قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

عظمة حلم محمد ﷺ علامة نبوة وسر

إعجاز:

يشهد لهذا ما روى عبد الله بن سلام قال: إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سَعْنَةَ قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجهه، سوى اثنتين لما أَخْبَرَهُمَا مِنْهُ: يسبق حلمه جهل الجاهل، ولا يزيد شدة الجهل عليه إلا حلمًا. فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه، فخرج يومًا ومعه علي بن أبي طالب، فجاءه رجل كالبُدَوِيِّ، قال: يا رسول الله، إن قرية بني فلان أسلموا، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أقتلهم أرواقهم رَغْدًا، وقد أصابتهم سنة وشدة، وإني مُشْفِقٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْسَلَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، يَعِينَهُمْ. قال زيد: فقلت: أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقًا. فأعطيته ثمانين دينارًا، فدفعها إلى الرجل وقال: «اعْبَلْ عَلَيْهِمْ بِهَا فَأَغْنِهِمْ». فلما كان قَبْلَ الْمَحَلِّ يَوْمَ أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة في نفر من أصحابه، فجبذت رداءه جبذة شديدة، حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجه جهنم غليظ، فقلت: ألا

شطر مالي لله، فإني أكثرها مالاً، صدقة على أمة محمد ﷺ. فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم. قلت: أو على بعضهم. قال: فرجع عمر وزيد بن سعيّة إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فأمن به وصدقته وبايعه وشهده معه مشاهد كثيرة».

في ذكر تواضعه ﷺ :

عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطُروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا عبدُ الله ورسوله».

وسُئلت عائشة رضي الله عنها، ما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا دخل بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلّي».

وقيل لعائشة رضي الله عنها: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: «كان رسول الله ﷺ بشراً من البشر، يفلّي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه». وفي رواية: يصنع في بيته كما يصنع أحدكم في بيته، يَخْصِف النعل ويرقع الثوب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن

تقضيي يا محمد، فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب مطلق. فارتعدت فرائض عمر بن الخطاب كالفلك المستدير، ثم رمى ببصره فقال: أيّ عدو الله، أنقول هذا لرسول الله ﷺ، وتصنع به ما أرى وتقول ما أسمع فوالذي بعثه بالحق لو لا ما أخاف قوّته لسبقني رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تَوَدّة وسكون، ثم تبسّم وقال: «أنا (وهو) أخوُج إلى غير هذا، أن تأمرني بخُشن الأذى وتأمره بخُشن التّباعَة، اذْهَبْ يَا عُمَرُ فَأَقْضِهِ حَقَّهُ وَزِدْهُ عَشْرَيْنَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ». فقلت: ما هذا؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكانَ منازعتك. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا. فمن أنت. قلت: أنا زيد بن سَعْنَة. قال: الحَبْر؟ قلت: الحَبْر. قال: فما دعاك أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت، وتقول له ما قلت. قلت: يا عمر، إنه لم يبقَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرتُ إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبقُ حلمه جهلُ الجاهل، ولا يزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرته منه، فأشهدك يا عمر أيّ رضىيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهدك أن

بُكَاءُ الصَّبِيِّ فَاتَّخِزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ». انفرد بإخراجه البخاري.

عن أنس بن مالك قال: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِي فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ مَهْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ». فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ». وأمر رجلاً فجاء بدلو من ماء فَمَشَّهْ عَلَيْهِ.

وقد عاتبه ربه في مواطن كثيرة، وكانت عتاباته ﷺ كلها دلائل وشهادات على رحمته.

في جوده ﷺ :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ». قال: «فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ».

عن أنس رضي الله عنه، «أَنَّ رَسُولَ

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كِرَاعٍ لَاجَبْتُ، وَلَوْ أَهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

عن قيس بن أبي حازم أن رجلاً أتى النبي ﷺ فلما قام بين يديه استقبلته رعدة، فقال له النبي ﷺ: «هُوَ عَلَىكَ، فَإِنِّي لَسْتُ مَلَكًا، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

في أنه ﷺ بعث رحمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ. قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً».

وعنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ». أخرجه أبو داود.

وهو كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وقد كان من شدة رحمته وإشفاقه على أمته أن لا يطيل الصلاة، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَطِيلَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَّخِزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ». متفق عليه.

عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ فَأُرِيدُ أَنْ أَطُولَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ

في مزاحه وملاعبته وأنه لا ينطق إلا بالحق ﷺ :

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر، وكان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية من البادية فيجهره رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيًا وَنَحْنُ حَاضِرُونَ» وكان رجلاً دميماً، فأتاه النبي ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، جعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر رسول الله ﷺ حين عرفه. وجعل رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ». فقال: يا رسول الله، إذن والله تجلدي كاسداً. فقال النبي ﷺ: «لَكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتُ بِكَاسِدٍ. أَوْ قَالَ: لَكِنْ أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ».

عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال له: «هَاذَا الْأَذْنَيْنِ». قال أبو أسامة: يمازحه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَمْزُجُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا».

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: احملني. فقال: «إِنَّا حَامِلُونَكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ». قال: وما أصنع

الله ﷻ لم يكن يُسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه». قال فأتاه رجل فسأله، فأمر له بشيء كثير بين جبلين من شاء الصدقة. قال: فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة.

في شجاعته ﷺ :

عن أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ، كَانَ فَرَعٌ بِالْمَدِينَةِ فَخَرَجَ النَّاسُ قَبْلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ سَبَقَهُمُ فَاسْتَبَأَ الْفَرَعَ عَلَى فَرَسٍ عُزِّي لِأَنِّي طَلَحْتُ مَا عَلَيْهِ سَرَجٌ، فِي عُنْقِهِ السَّيْفُ، فَقَالَ: «لَمْ تَرَاغُوا». وَقَالَ لِلْفَرَسِ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا، وَإِنَّهُ لَبَحْرٌ».

عن علي رضي الله عنه قال: «لَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ».

وعنه قال: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ وَلَقِيَ الْقَوْمَ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا كَانَ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ».

عن البراء رضي الله عنه قال: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ نَتَّقِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، وَإِنْ الشَّجَاعُ مِنَ الَّذِي يَحَاذِي بِهِ».

حيه للحق وعشفه للصدق وإخلاصه في البحث لا يسعه إلا الإعجاب بعظمة النبي ﷺ والانبهار بما جاء به.

وحين يلتقي صدق الفطرة مع عظمة الحق على طريق واحدة، تكون النتيجة واحدة: هي التصادق والتوافق، ذلك أن وحي الفطرة الذي هو الإلهام من الرب الخالق، لا يختلف مصدرا عن وحي السماء، فكلاهما يضيء من مشكاة واحدة.

وفيما يأتي نموذج من الشهادات التي أدلى بها المنصفون من الفلاسفة والمفكرين الغربيين من غير المسلمين، ونقتصر على شهادة الفيلسوف الإنجليزي الشهير توماس كارلايل الحائز على جائزة نوبل للسلام، وهي شهادة تكاد تكون أشهر وأعظم شهادة نطق بها كاتب غربي، وتكاد تظن أن الذي كتبها مسلم خبير بأحوال النبي ﷺ.

وفيما يأتي مقتطفات مما قال كارلايل في كتابه الأبطال مخاطباً قومه النصارى: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن

بولد الناقة؟ فقال: «وهل تُلد الإبل إلا النوق».

وعنه أنه ﷺ دخل على أم سليم، فرأى أبا عُمير حزيناً فقال: «يا أم سليم، ما بال أبي عُمير حزيناً؟». قالت: يا رسول الله، مات نَعْرَه. فقال ﷺ: «يا أبا عُمير، ما فعل النَعير؟».

عن أنس قال: «كان النبي ﷺ من أفكاه الناس».

عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان مزاحاً، وكان يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَاخِذُ الْمَزَاحَ الصَّادِقَ فِي مَزَاحِهِ».

شهادات المنصفين من غير المسلمين:

الإنصاف هو الوقوف عند حدود العدل وعدم اللبس مع النهوى وحب النفس.

والمنصف هو من لا يرى نفسه ولا مذهبه وإنما يرى الحق ويبصر العدل ولا يدعي لنفسه الصواب.

والإنصاف في ذاته دليل على احترام الإنسان لنفسه، واعتزازه بما وهبه الله من حرية وما فطره عليه من حب الحق.

والعاقل المنصف إذا استرسل مع

أحلام المواد.

محمدًا حدّاع مزوّر.

نعم، وليس حديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه حدير أن تنهار أركانه، فينهدم؛ فكانه لم يكن».

إلى أن قال: «وعلى ذلك، فلسا نعدّ محمدًا هذا قط رجلاً كاذباً متصعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، وبطمع إلى درجة ملك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائق».

وما الرسالة التي أذاها إلا حق سراج، وما كلمته إلا قول صادق.

كلا، ما محمد بالكاذب ولا سلق، وهذه حقيقة تدفع كل باطل، وحصر حجة القوم الكافرين.

ثم لا ننسى شيئاً آخر، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب.. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء، أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية في ظلمات الدهور.

وإن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المححلة؛ فإن الرسالة التي أذاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء، أكذوبة وخذعة؟!

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الزواج، ويصادفان منهم مثل هذا القبول، فما الناس إلا بُلّة مجانين، فوا أسفاً! ما أسوأ هذا الزعم، وما أضعف أهله، وأحقهم بالرثاء والرحمة.

ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألام، وهل رأيتم قط - معشر الإخوان - أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وبشره عناء؟

والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب؛ فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الحجر، والجص، والتراب، وما شاكل ذلك - فما ذلك الذي يبنيه بيت، وإنما هو تل من الأنفاق، وكثيب من

السلطة والجاء، وكيف لا، وتلك نفس صامئة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؛ فبينما ترى آخرين يرضون الاصطلاحات الكاذبة، ويسبرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمداً لم يرض أن يتلّفَعَ بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمبتدع الأباطيل.

لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينه - كما قلت - بأهواله، ومخاوفه، وروائقه، ومباهره، ولم يكن هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكان لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه: ها أنا ذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، فإذا تكلم هذا الرجل فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء، وكل قول جفاء».

إلى أن قال: «إذاً فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين أن محمداً كاذب، ونعد موافقتهم عاراً، وسبة، وسخافة، وحمقاً؛ فلنربأ بأنفسنا عنه».

إلى أن قال: «وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم

وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ، صادق العزم بعيداً، كريماً براء، رؤوفاً، تقياً، فاضلاً، حراً، رجلاً، شديد الجد، مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب، لينّ العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإناس، بل ربما مازح وداعب، وكان - على العموم - تضي، وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق؛ لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأقواله».

إلى أن قال: «كان عادلاً، صادق النية، كان ذكي اللب، شهم الفؤاد، لودعياً، كأنما بين جنبه مصابيح كل ليل بهيم، ممتلئاً نوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذه معلم، وهو غني عن ذلك».

ويزعم المنتعصبون من النصارى والملحدّين أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان.

كلا - وأيم الله - لقد كان في فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والغلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحكمة، وحجّتي - أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب

البارية لجدير أن يكون حقاً، وجدير أن يُصدق به.

وإنما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء، الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به.

وهذا الشيء، هو روح جميع الأديان، وروح تلبس أثواباً مختلفة، وأثواباً متعددة، وهي في الحقيقة شيء واحد.

وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً أجارياً على قواعد الخالق، تابعاً لقوانينه، لا سبحانه لا عبثاً أن يقاومها ويدافعها.

لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها، وحق له أن يتلعنها؛ لأنه حقيقة، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنها حطبت ميتاً.

إلى أن قال: «أيزعم الأفأكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال؟»

كلا، ثم كلا، ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يضور ويتأجج - ليكون قلب محتال ومشعوذ، لقد كانت حياته في نظره حقاً، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة.

إلى أن قال: «مثل هذه الأقوال، وهذه الأفعال ترينا في محمد أخ الإنسانية الرحيم، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق، وابن أمتنا الأولى، وأبينا الأول.

وإنني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء، والتصنع، ولقد كان ابن الفقار رجلاً مستقلاً الرأي، لا يقول إلا عن نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً، ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً، يخاطب بقوله الخرمين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة، وكان يعرف لنفسه قدرها.

ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قوة، ولكنها كذلك لم تخل من دلائل حمة وكرم وغفران، وكان محمد لا يعز من الأولى، ولا يفتر بالثانية.

إلى أن قال: «وما كان محمد بعد قط، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعبٍ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح، ومسألة فناء وبقاء، ولم يكن منه بزازها إلا الإخلاص الشديد، والجد المرير.

فأما التلاعب بالأقوال، والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق - فما كان من

مخاطبا إياه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الحجر: ٩٥، وأخير تعالى عن مصير من يؤذي محمدا ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ الأحزاب: ٥٧، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٦١.

والله سبحانه بين أن مُبْغِضَ النَّبِيِّ ﷺ هو الأقطع الخاسر الذليل، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الكوثر: ٣.

وإننا نرى في اشتداد الأذى على شخص النبي ﷺ من الحاقدين الحاسدين مؤثرا إيجابيا لانتصار الإسلام وبلوغه كل أنحاء المعمورة كما بشر المصطفى ﷺ، ذلك أن التاريخ يؤكد لنا أنه يوم أن كان الإسلام في انتشار، وكان يسجل تقدما متواليا في قلوب المدعوين في زمن النبي ﷺ، كانت قريش الظالمة تكيل لشخص النبي ﷺ التهم الكثيرة والتشويهات الباطلة، والاعتبار بما مضى يفضي إلى أن التاريخ يعيد نفسه، خصوصا إذا علمنا أن صوت الإسلام اليوم يسري في كل أرجاء الدنيا، ولم يعد من الصعب أن تبلغ دعوته كل بيت في شرق الأرض أو غربها.

شأنه قط، وذلك عندي أفظع الجرائم؛ إذ ليس هو إلا رقدة القلب، ووسن العين عن الحق، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة.

وفي الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر، وأصوب الرأي؛ فنفوس المؤمنين رابطة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء.

إلى أن قال: «وسع نوره الأنحاء، وعم ضوءه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند، ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة، ودهور أممية بنور الفضل والنبيل، والمروءة، والبأس، والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة».

والخلاصة: إن محمدا ﷺ محمود مدح عند أهل الأرض والسماء، ولن تضره كلمات التجريح والثلث، ولن تنال من علو شرفه التشويهات الحاقدة الحاسدة، كيف وقد نصره الله الغالب على أمره، فقال عز من قائل: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ التوبة: ٤٠، وقال

لِيَسْخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿الزخرف: ٣٠ - ٣٢﴾

وقد روى الحاكم بسند على شرط
الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا
لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به.
فأنزل الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ
فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الْفُلَافِلِينَ إِن تَأْتِي اللَّهَ
يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام: ٣٣.

وروي أن الأخنس بن شريق دخل على
أبي جهل فقال: «يا أبا الحكم أخبرني عن
محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس «بنا
من قريش غيروي وغيرك يسمع كلاماً؟
فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً
لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا
ذهبت بنو قصي بالسقاية، والحجبة،
والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟».

وقال: تنازعنا نحن وبنو مناف الشرف
أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا،
وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا على
الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي
ينزل عليه الوحي من السماء، فمتى ندرك
هذه، والله لا نؤمن به ولا نصدقه».

ومن أكبر الأمم حسداً لأمة الإسلام
أهل الكتاب، فإن الله تعالى يقول فيهم:

وصدق النبي ﷺ إذ يقول في ما يرويه
عنه المقداد بن الأسود الكندي: «لا يبقى
على ظهر الأرض من بيت مدر (طين) ولا
وبر (صوف الإبل) إلا أدخل الله عليهم
كلمة الإسلام يعز عزيز، أو بذل ذليل، يعزهم
الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فلا يدينوا
لها». قال الحاكم النيسابوري: هذا حديث
صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي رواية ثميم الداري: (ليبلغن هذا
الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت
مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين يعز عزيز
أو بذل ذليل عزاي عز الله به الإسلام وذل يذل
الله به الكفر). أخرجه أحمد، والطبراني،
والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

الأمة المحسودة:

الأمة المحسودة هي أمة محمد ﷺ،
وإنما يحسد صاحب النعمة.

والحسد خلق القدامى من الكافرين
المعاندين، وقد سجل القرآن مقولتهم
فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْمَقِيُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا
بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ
رَحِمَتَ رَبِّكَ إِنَّمَا قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٩﴾

وقد كانت إجابة دعاء سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل نعمة كبرى امتن الله بها على الأمة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٩﴾

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿التوبة: ١٢٨﴾

وتلك نعمة كبرى تستحق الشكر الدؤوب، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿البقرة: ١٥١ - ١٥٢﴾

لقد من الله سبحانه وتعالى على أمتنا بإرسال رسوله الكريم محمد ﷺ لينقلها من ذل عبادة المخلوق إلى عز طاعة الخالق جل وعلا، ومن الظلم والجور وسفك الدماء إلى ساحة العدل والأمن والاطمئنان، ومن الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ١٠٩﴾

يقول الإمام ابن كثير: «يحذر تعالى عبادة المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عبادة المؤمنين بالصفح والعتو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح».

ونعم الله على هذه الأمة واسعة متعددة، أبرزها ما يأتي:

١ - نعمة إرسال خاتم الأنبياء ﷺ :

ولا شك أن أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض هي إرسال هذا النبي الكريم الذي أكمل به الدين، وجعله حجة على الناس أجمعين.

وقد أخبر الله في كتابه العزيز عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما دعوا الله لأهل الحرم وهما يبنيان البيت بأدعية من بينها ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

الناس إلى رسول الله إلى كنتم جميعاً ﴿١٥٨﴾
الأعراف: ١٥٨.

وقال ﴿١٥٩﴾ في الحديث المنفق على
صحته: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من
الأنبياء قبلي»، فذكر من بينها: «وكان
النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس
عامة»، وقد أوضح ذلك ﴿١٦٠﴾ في الحديث
الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال:
«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه
الامة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن
بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».
قال سعيد بن جبير رحمه الله: «مصدق
ذلك في كتاب الله عز وجل قال الله
سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ هود: ١٧.

4 - نعمة الوسطية في الدين

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٣.

قال أبو جعفر الطبري: «يعني جل
ثناؤه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا﴾، كما هديناكم أيها المؤمنون
بمحمد عليه الصلاة والسلام وبما جاءكم

والإسلام، ومن التعاون على الإثم
والعدوان إلى التعاون على البر والنفع،
ومن الأمر بامسكروا والهي عن المسكر،
إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
ومن العيش والحياة إلى النصح والأمانة،
ومن الخرج والهلك والاعتراض على فضاء
الله إلى العصر والناس والرضا بما قدره الله
وفضاه، وفي الحملة: من كل ضار عاجلاً
وآجلاً إلى كل نافع في الحال والمآل.

2 - نعمة الهداية والأخوة والتآلف

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصِّتُكُمْ
بَيْنَهُمْ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ آل عمران: ١٠٣.

وقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَفْعَلُوا بِكَ
حَسَنَةً فَهِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَنْفَقْتَ مِنَ الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِمَّا آفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَنْفَعَنَّ اللَّهُ
الْفِتْنَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الأنفال: ٦٢-٦٣.

3 - نعمة عالمية الرسالة وخلودها

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مَكَّافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا﴾ سبأ: ٢٨، ويقول: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُهَا

به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمة وسطاً». ومعنى الوسط: العدل الخيار.

5 - نعمة الشهادة على الناس:

أنزل الله تعالى أمة محمد ﷺ منزل العدول من الحكام، فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم بتبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء.

ومن معنى شهادة الأمة المحمدية أن الله قبل شهادتها وجعل أهلها شهداءه في أرضه، فقد جاء في حديث أنس بن مالك أن جنازة مرت فأتني عليه خيراً فقال النبي ﷺ: (وجبت وجبت) ثم مرت أخرى فأتني عليها شراً فقال النبي: (وجبت وجبت) فلما سأله عمر عن ذلك قال: (من أنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض).

أخرجه البخاري، ومسلم.

ومن معنى الشهادة أنها تشهد لكل نبي أنكر قومه أنه قد بلغ، تشهد له بأداء الرسالة وتبليغها فيقبل الله شهادتها.

روى أبو سعيد ﷺ عن النبي ﷺ

قال: «يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك وأقل. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمنه. فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. أخرجه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني.

6 - أمة العصمة من الضلالة:

فلا تجتمع على ضلالة في فرع ولا في أصل، فهي معصومة من الخطأ عند اجتماعها على أمر، كما أنها لا تخلو من وجود طائفة قائمة بالحق في كل زمان لا يضرها من خالفها.

عن كعب بن عاصم الأشعري قال:

ومن خصائص الأمة المحمدية أن جعلت لها الأرض مسجداً وطهوراً فأبنا رجل أدركته الصلاة فلم يجد ماء، ولا مسجداً فعنده طهوره ومسجده فبقيهم ويصلي بخلاف الأمم من قبلنا فإن الصلاة أيسرت لهم في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وأن رسول الله ﷺ - عام غزوة تبوك - قام يصلي فاجتمع وراءه رجال يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم وقال: «أعطيت الليلة خمساً ما أعطيتهن أحد قبلي»، وفيه: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعتهم». أخرجه الإمام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات.

ومن خصائص هذه الأمة المحمدية أن الله وضع عنها الأغلال والأثقال والآصار التي كانت على الأمم قبلها فأحل لها كثيراً مما حرم على غيرها، ولم يجعل عليها في أحكامها عتناً وشدة كما قال الله: ﴿هُوَ أَجَبَّتْكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج: ٧٨. فكانت شريعة المصطفى ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أجاز أمني أن تجتمع على ضلالة». [ابن أبي عاصم وقال الألباني: الحديث بمجموع طرقه حسن]. وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمني طاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». [البخاري ومسلم].

7. كتابها محفوظ:

- حفظ كتابه، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة، أو ينقصوا منه لعجزوا عن ذلك، ولا يخفى ما وقع من التبديل في التوراة والإنجيل.

8. أمة الخيرية:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [العمران: ١١٠].

وقال ﷺ في هذه الآية: «إنكم تسمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» [الترمذي، وقال حديث حسن].

وهذه الأمة المحمدية العظيمة التي حازت شهادة الخيرية جعل الله لها جملة من الخصائص امتازت بها على غيرها من الأمم.

9. أمة التيسير:

أكمل الشرائع وأيسرها وأسهلها، حتى قال ﷺ: «إني أرسلت بحنيفية سمحة». [أحمد].

وقد خفف الله عن هذه الأمة بشريع الدية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولم تكن الدية في الأمم السابقة.

وفي الحديث الذي رواه أحمد عن حذيفة يقول الرسول ﷺ: «وأحل لنا كثيراً ما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا من حرج».

ومن خصائصها أنها أقل عملاً من الأمم قبلها وأكثر ثواباً وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. عن ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «... إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على

قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذي يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنه فضلي أعطيه من شئت». أخرجه البخاري.

قال ابن حجر رحمه الله: فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته.

10 - أمة الجمعة:

ومن خصائص هذه الأمة المحمدية أن الله هداها ليوم الجمعة سيد الأيام وخير يوم طلعت فيه الشمس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد». [البخاري ومسلم].

11 - أمة العفو:

ومن خصائص هذه الأمة المحمدية أن الله تجاوز عنها الخطأ والنسيان وحديث

ومن خصائصها أنها أول من يجتاز الصراط، وأول من يدخل الجنة وقد جاءت في ذلك أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: (فأكون أنا وأمتي أول من يجيز) - يعني الصراط - أخرجه البخاري. وفي الحديث الآخر عند البخاري، يقول ﷺ: (نحن أول من يدخل الجنة).

ومن خصائص هذه الأمة المحمدية أنها أكثر أهل الجنة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: (أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟) قال: فكبرنا. ثم قال: (أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟) قال: فكبرنا. ثم قال: (إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة). البخاري.

بل جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وقال عنه حديث حسن وصححه الألباني (أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منه من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم).

وقال ﷺ: «نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق، ونحن أول من يدخل الجنة». أخرجه مسلم. - ومنها أنه (يدخل من أمتة إلى الجنة سبعون ألفا بغير حساب) ولم يثبت ذلك لغيره ﷺ.

الفس ما لم تعمل أو تتكلم.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قوله: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها ما لم يتكلموا ويعملوا به» [البخاري ومسلم].

12 - أمة محفوظة:

ومن خصائص هذه الأمة المحمدية أنها محفوظة من الهلاك والاستئصال فلا تهلك بالسنين ولا بجوع ولا بغرق ولا يسلط عليها عدو من غيرها فيستبيح بيضتها ويستأصلها. فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكثرين الأحمر والأبيض (أي كسرى وفارس)، وإني سألت ربي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة (أي قحط) وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يبيح بيضتهم ول واجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً). [مسلم].

13 - أمة مقدمة في الآخرة:

في الريادة والقيادة للأهم الأخرى؟!

إن لدينا من الخير والنور والمبادئ والقيم ما لا يملك الآخر، وإن الواجب الجماعي المنوط بنا - كأمة - هو أن نحقق في أرض الواقع مبادئ الخير والوسطية، والسماحة، ونحمل الإسلام بوجهه الجميل المشرق فنبشر به العالمين ونحیی به موات الدنيا فإن الأرض عطشى إلى غيث الإسلام، مشتاقة إلى نوره.

ملاحظة: للموضوع مراجع

لأجل هذه النعم لحسدت أمتنا، وحوارب ديننا ونبينا ﷺ، حوربنا حربا عسكرية، وحربا اقتصادية، وحربا إعلامية، وحربا تنصيرية، ولكن سيبقى الإسلام وضاء يشع بالنور على كل الدنيا، ويغزو القلوب، وستبقى أمتنا ما استمسكت بعري الإسلام الخالدة.

ويبقى السؤال: هل شكرنا الله حق شكره أن جعلنا من هذه الأمة؟ هل كنا على مستوى هذا التكريم؟ وهل أدركنا قيمة النعم الكثيرة التي أقامنا الله فيها؟ وهل وعينا قيمتنا كأمة خيرية ووسطية وشهادة؟ وهل أعطينا العالم صورة حسنة عن هذه الأمة المحمدية؟ هل وعينا دورنا

